

مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ جمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الأولى:

مصلى الشيخ عمي سعيد
- دراسة معمارية وأثرية وتاريخية -

إعداد:

أ. كمال سليمان إبراهيم رمضان⁽¹⁾

1 - الأستاذ: كمال سليمان رمضان، رئيس مصلحة الأرشفة بديوان حماية وادي مزاب وترقيته، أستاذ مساعد في المعهد المتخصص بالإرشاد السياحي بغرداية، مثل الجزائر في عدة محافل دولية حول الآثار.

بسم الرحمن الرحيم

وبه نستعين ، والصلاة والسلام على رسول الله ؛

سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي الذي نتشرف بحضوره معنا شخصيا لهذه الأيام العلمية النيرة ، ونسأل الله أن يديم في أنفاسه ويبارك في عمره ، ضيوف الجزائر ووادي مزاب الفضلاء من سلطنة عمان ومن تونس الشقيقة... مشايخنا الأجلاء... ضيوفنا الأعزاء من ممثلي السلطات الولائية والمحلية... أساتذتنا الموقرون... طلبتنا المحترمون... أيها الجمع الكريم...

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أود في البداية أن أنوه وأقدم كل تقديري واحترامي للجنة المنظمة لإدارة مؤسسة الشيخ عمي سعيد لهذا الملتقى ، الذي نسأل الله من خلاله أن يجازي كل القائمين في إنجاح هذا الملتقى الحضاري خير الجزاء. في الحقيقة إن تدخلني في هذه الدقائق المعدودات هو إعطاء لمحة مختصرة وتقنية للجانب المعماري والأثري لروضة الشيخ عمي سعيد الخيري التي لا تزال شامخة منذ ما يقارب الـ 5 قرون ، وهي فرصة سانحة لكل الحاضرين الأكارم للمشاهدة والسياحة معنا عبر العرض الذي سوف يقدم أمامكم للتعرف على هذا المعلم التاريخي الحضاري ، وهي فرصة أيضا للذين لم يسعفهم الحظ زيارة هذا المعلم ومشاهدة ما بداخله. كما أن العرض هو مختصر لأطروحة اليسانس التي قدمتها في جامعة الجزائر سنة 1994م ، فالله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والصالح.

مقدمة

بفضل تظافر العوامل البيئية والدينية في وادي مزاب أنتجت منها عمارة متميزة لا تزال تحافظ على تقاليدها المعمارية ، وهي تعد بحق نموذجا رائعا في العمارة الصحراوية ، من أسوار وأبراج ومرافق لنظم الري التقليدية على مستوى الواحات الغناء... إلى غير ذلك من المعالم التاريخية التي تم إحصاؤها وجردها والتي قد تجاوزت الـ 250 معلما تاريخيا موزعا عبر إقليم وادي مزاب ، ولا تزال هذه المنشآت الدينية تؤدي دورها داخل المجتمع المزابي شامخة منذ قرون.

كل هذا الكم من المعالم التاريخية أهل منطقة وادي مزاب بأن تصنف ضمن روائع التراث الإنساني العالمي من قبل منظمة اليونسكو سنة 1982م وضمن قائمة التراث الوطني سنة 1971م.

ولقد كان إقليم وادي مزاب منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي إلى الآن ملهما للعديد من الرحالة والباحثين والمهندسين العالميين والأكاديميين أمثال المفكر العالمي "لوكور بيزيه" الذي زار ميزاب في سنة 1931م ومن أتى بعده من أمثال المهندس "بويون" و"أندريه رافيرو" وغيرهم يعدون بالمئات ، هذا ما أنتج منه إحصاء ما يزيد من 5000 مؤلف حول مزاب في شتى الميادين التاريخية والمعمارية والاجتماعية.

نذكر إخواني الحاضرين -فقط- أن من الأسرار المتميزة التي أدت إلى ظهور المعمار التاريخي بوادي مزاب بشتى أشكاله هو عامل البيئة الذي كان لها أثره الفعال في تبلور النمط المعماري المحلي المتميز لوادي مزاب ، هذا النمط المتميز كان له أصول في العمارة الإسلامية العريقة كنظام المساجد ونظام المدارس ونظام المصليات...إلخ.

والسر الأول يكمن في الفضل العظيم لما تركه وصممه العلامة الشيخ "أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر الفرستائي النفوسي" الذي عاش بين سنتي 420هـ و504هـ وهو واضع كتاب "القسمه وأصول الأراضين" وهو كتاب في الفقه والعمارة ، والذي علق عليه بعض الباحثين أنه يعد أول كتاب في فقه العمارة الإسلامية.

وبفضل هذا العالم الجليل فقد استلهم المزاويون دروسا قيمة في أصول الهندسة المعمارية الإسلامية وبنوا على منواله قصورا متميزة في وادي مزاب تراعي الجوانب الدينية والمعمارية والاجتماعية لخصوصيات المجتمع المزابي.

ومن بين هذه المعالم والتي أنا بصدد التحدث عنها روضة الشيخ عمي سعيد الجربي ، هذا المعلم الذي كانت لي الفرصة في القيام بدراسته تقنيا وأثرها منذ أزيد من سنة ونصف خلال سنوات 1993م و1994م رفقة تقنيين من مؤسسة ديوان حماية وادي مزاب.

1- تاريخ المصليات بالعالم الإسلامي:

إن أقدم مصلى في العالم الإسلامي هو الذي بناه الرسول ﷺ بالمدينة المنورة على الجهة الجنوبية الغربية للمدينة المنورة في مكان يدعى بنو سليمة ، وقد كان مخصصا لعابري السبيل والتجار. وفيما بعد أخذت المصليات تنتشر وتأخذ أشكالا وأدوارا مختلفة كالتي كانت داخل الأربطة -كمصلى رباط سوسة بتونس ، أو داخل المدارس - ومصلى مدرسة السفارين بفاس ، أو تكون مستقلة كمصلى المنصورة بتلمسان.

2- المصليات في وادي مزاب:

من خصوصيات المعمار التقليدي في إقليم وادي مزاب هو وجود ما يسمى بمعلم "المصليات" وهي تلك المصليات التي شيدت في وادي مزاب وسط مقابر، وهي غالبا ما تحمل اسم أكبر فقهاء وعلماء المدينة الذين كانوا على رأس حلقة العزابة في مدينتهم لفترة معينة بعد تأسيس المدينة مباشرة، وقدموا خدمات جليلة لمجتمعهم في ميدان التعليم وإصلاح المجتمع.

وهذه المصليات قد كان لها دوافع وأسباب لإنشائها تمثل جليا في الأنظمة الاجتماعية السائدة بالمنطقة كنظام العزابة الذي يرجع له الفضل الكبير في تسييرها بحيث لا تكاد تخلو مقبرة من مقابر وادي مزاب من هذه المصليات وقد تم إحصاء ما يقرب من 52 مصلى في كامل ربوع وادي مزاب بما في ذلك قصري القرارة وبريان.. ويمكن ملاحظة نوعين من المصليات بوادي مزاب:

النوع الأول: هي عبارة عن مصليات جنائزية مغطاة.

النوع الثاني: هي عبارة عن فضاءات مكشوفة محاطة بسياج جداري قصير، يمكن تسميتها باسم المصليات الجنائزية المكشوفة.

إن شكل وحجم هذه المصليات يختلف حسب المهام المنوطة بها، بحيث تتفق كل المصليات إجمالا في القيام ببعض الشعائر الدينية كشعائر صلاة الجنائز ونظام حلقات القرآن أيام الجمعة خلال بعض فصول السنة (نظام المحاضر).

إن هذه المصليات لها حجم صغير مقارنة بالمساجد الجامعة التي تقام فيها صلاة الجمعة، وفيما يخص هذه المصليات فإن مخطط بنائها الداخلي شبيه تماما لمخططات المساجد ولها نفس العناصر المعمارية تقريبا من دعائم وقبوات... إلخ، كما أنها لا تحتوي على مئذنة، ومن ميزاتها أنها مجردة من الزخارف والنقوش، ومبنية كلها بوسائل تقليدية من حجر وجير والرمل الذي يؤتى به من مجاري الأودية نظرا لتركيبته الفيزيائية المقاومة لعوامل الزمن.

وإن هذه المصليات قد كانت لها دواع وأهداف لإنشائها تمثل جليا في عامل الأنظمة الاجتماعية السائدة بالمنطقة، كنظام العزابة الذي يرجع له الفضل الكبير في تسييرها بحيث تكاد لا تخلو مقبرة من مقابر وادي مزاب من هذه المصليات.

ومن العجيب أن مصلى الشيخ عمي سعيد هو المصلى الوحيد من بين المصليات الـ 52 والتي قمنا بجردها وإحصائها يتميز عن بقية المصليات الأخرى نظرا لمراحل توسعته التي عرفها منذ إنشائه ونظرا لتعدد مهامه الدينية والتعليمية والقضائية ثم أخيرا الجنائزية.

أما قديما فقد اشتهر مسجد الشيخ عمي سعيد بالمجال القضائي والتعليمي مثلما هو معروف في التاريخ.

3- أهم المصليات في وادي مزاب:

لقد تم في سنة 2001م إحصاء ما يقارب من 52 مصلى في كامل ربوع وادي مزاب من قصر العطف إلى قصر غرداية، وهذا من خلال جردها ورفع القياسات المعمارية عليها وتصويرها لتدوينها في البطاقات التقنية على مستوى وزارة الثقافة. وهذا ضمن مخطط وطني لجرد المعالم التاريخية في الجزائر، ومن أشهر المصليات في وادي مزاب نجد مثلا:

1. مصلى الشيخ عمي سعيد بغرداية.	6. مصلى الشيخ باسة وفضل ببني يسجن.
2. مصلى الشيخ باعيسى اوعلوان بغرداية.	7. - مصلى الشيخ سيدي إبراهيم بالعطف.
3. مصلى الشيخ بابا والجمة بغرداية.	8. - مصلى الشيخ باعبد الله بالعطف.
4. مصلى الشيخ باعبد الرحمان الكرتي بمليكة.	9. - مصلى الشيخ دحمان بنورة.
5. مصلى الشيخ بامحمد عبد العزيز ببني يسجن.	

إلى غير ذلك من المصليات المتواجدة عبر قصور وادي مزاب .

ملاحظة: ما يقارب من 95% من هذه المصليات فإن دورها قد اقتصر منذ إنشائها خلال القرون الماضية على دورين أساسيين:

- استغلالها لأداء صلاة الجنازة.
- استغلالها خلال بعض فصول السنة لأداء شعائر حلقات القرآن في أيام الجمعة (نظام المحاضر).
- إلا أن مصلى الشيخ عمي سعيد هو المصلى الوحيد من بين المصليات الـ 52 والتي قمنا بجردها وإحصائها يتميز عن بقية المصليات الأخرى، فإنه يتميز بما يلي:
- قد عرف عدة توسعات معمارية مثلما سوف أبين لاحقا.
- تعدد مهامه الدينية والتعليمية والقضائية عبر القرون من: مصلى ومدرسة، ثم محكمة استئناف ثم مصلى جنازي في القرون الأخيرة لما أضيفت إليه القاعة المخصصة لغسل الأموات.

- النمط الاستراتيجي المتميز الذي بني به هذا المعلم التاريخي ، فالقادم من بعيد يصعب عليه التعرف على موقع هذا المعلم ، فأغلب المصليات التي نعرفها تتواجد على سفح الجبل ومكشوفة ، أما مصلى الشيخ عمي سعيد فقد بني بطريقة تساعد في كتم أسرار جلسات مجلس عمي سعيد مثلما سوف أبين لاحقا ، مما ساهم كثيرا في بقاءه قرونا من الزمن.
- ومما زاد في بقاءه وحفظه من عوامل الزمن هو شكل منحني مما أدى إلى تراكم الرمال على جنباته مما ساهم في حفظه أكثر.

4- البطاقة التقنية لمصلى الشيخ عمي سعيد:

- التسمية في بطاقة الجرد التقنية: مصلى الشيخ عمي سعيد.
- التسمية المحلية: تمجيدة ن آمي سعيد.
- حالة المصلى: حالة حفظ جيدة بفضل أشغال الترميم الأخيرة التي أجريت سنة 2002م.
- والتي كانت تحت إشراف رسمي من : ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب.
- موقع المصلى: يقع هذا المصلى شمال شرق مدينة غرداية ، وسط المقبرة المسماة حاليا باسمه "مقبرة الشيخ عمي سعيد" ، وبالتحديد في سفح هضبة تطل على مجرى وادي مزاب.
- مقاسات المبنى:
- الوصف المعماري للمصلى:
- الروضة تتألف من 4 أقسام:
- (1) قاعة الصلاة.
- (2) قاعة اجتماعات المجلس.
- (3) الرواق.
- (4) قاعة لغسل الموتى مستحدثة.

يصل بين هاتين القاعتين رواق طويل في الجزء المغمور في الأرض.

- (1) قاعة الصلاة: مغطاة بقبة مسطحة محمولة على أعمدة يصل بينها أقواس ، أما سقف القاعة محمول على عوارض مصنوعة من جذوع النخيل على علو بقدر مقاس الإنسان أما العرض فعلى قدر ركوع أو سجود المصلي.

- (2) قاعة الاجتماعات: مغطاة بقبة مسطحة محمولة على أعمدة يصل بينها أقواس ، أما سقف القاعة محمول على عوارض مصنوعة من جذوع النخيل ، كما أن جدرانها تتكون من فتحات للإضاءة وللتهوية اللازمة ومراقبة سير الجلسات السرية.

(3) الرواق: وهو مغطى وشكله شبه دائري يحتوي على مجموعة من أقواس غير منتظمة الشكل ، وهذا الرواق الموجود داخل الروضة مغطى بسقف محمول على عوارض خشبية مصنوعة من جذوع النخيل على علو بقدر مقاس الإنسان.

(4) قاعة لغسل الأموات: هذه القاعة تم إضافتها خلال القرون الأخيرة ولم تكن أصلية في الروضة منذ نشأتها في القرن الـ10هـ/الـ16م.

* معلومات تقنية حديثة حول الروضة:

- بعد عمليات الرفع المعماري والدراسة التقنية الأثرية التي أجريتها سنة 1993م برفقة تقنيي ديوان حماية وادي مزاب وترقيته للتحضير المذكرة الجامعية حول الروضة تبين لنا ما يلي :
- إن الرواق الموجود في الجهة الجنوبية الشرقية والشمالية الشرقية للروضة هو حديث النشأة مقارنة بالرواق المحيط بقاعة الصلاة وقاعة الجلسات.
 - إن الفتحات الصغير الحجم والمخصصة للتهوئة والإضاءة بقاعة الصلاة بينت أن الرواق الموازي لجدار القبلة مستحدث.

5- الدراسة التاريخية للمصلى:

* تاريخ مقبرة الشيخ عمي سعيد:

- تذكر بعض المصادر التاريخية التي تم اعتمادها أن هذه المقبرة تعد من بين أقدم المقابر بقصر غرداية بالموازاة مع مقبرة الشيخ بابا والجمة وهذا نظرا لضمها قبورا للمشايخ الأوائل الذين تم دفنهم بمقبرة الشيخ عمي سعيد أمثال :
- الشيخ باعيسى او علوان المعاصر للشيخ بابا والجمة اللذان يعود تاريخ وفاتهما إلى القرن الـ05هـ الموافق للقرن الـ11م.

هذا ما يبرز قدم هذه المقبرة والله أعلم.

تذكر بعض الروايات التاريخية أن الروضة قد بنيت أثناء استقرار الشيخ عمي سعيد بوادي مزاب ، حيث أن تاريخها يعود إلى القرن الـ10هـ/الـ16م ، فجعله مقرا للتدريس ومكانا لأداء الصلوات.

* الأدوار التاريخية لروضة الشيخ عمي سعيد:

1. روضة الشيخ عمي سعيد كانت تعقد بها جلسات مجلس الشيخ عمي سعيد (مجلس العزابة الأعلى)، وهذا المجلس مثلما هو معروف يضم ممثلين عن حلقات العزابة لكل قصور وادي مزاب الذي يهتم بالقضايا المشتركة وتوحيد الفتوى.

2. كما كانت الروضة مقرا لمحكمة الاستئناف لمجلس الشيخ عمي سعيد ، وهذا عندما عرفت مؤسسة القضاء بوادي مزاب تطورا وتنظيما بإنشاء ما يعرف بالمحاكم الإباضية على مستوى كل قصر.
3. كما لعبت الروضة دورا علميا وتربويا رائدا للتفقه في علوم الدين حيث كانت قبلة يؤمها الطلبة من كل قرى وادي مزاب.

لقد تخرج على يد الشيخ عمي سعيد العديد من العلماء الذين اشتهروا خلال القرن الـ10هـ/الـ16م، أمثال العلامة أبو مهدي عيسى بن إسماعيل المليكي الشهير بالشيخ سيدي عيسى الذي توفي سنة 971هـ/1563م.

4. لقد أدت الروضة عدة أدوار اجتماعية على يد الشيخ عمي سعيد وهذا من خلال جهوده العظيمة في تسوية الأوضاع وتحسين العلاقات بين القبائل والقرى المتنازعة فانتشر العلم والأمن وساد السلم في زمنه.

* الأسباب الرئيسية لاختيار الروضة مكانا لتنظيم مجالس الشيخ عمي سعيد:

حسبما ذكره الدكتور: عوض خليفات في كتابه "النظم الاجتماعية والتربوية للإباضية في شمال إفريقيا في مرحلة الكتمان":

1. بُعد المصلى عن المدينة وهذا يضمن السرية التامة لاجتماعات المجلس ، وبفضل الفتحات الموجودة الممتلئة في كامل جدران المصلى يمكن تحويل مسار النقاش عند رؤية أي قادم نحو المكان.
2. نظرا لتوضع الروضة داخل المقبرة فإن هذا المكان المقدس يذكر أعضاء المجلس بهيبة المكان مما يساعدهم في اتخاذ قرارات عادلة.

6- أشغال ترميم روضة الشيخ عمي سعيد سنة 2002م:

* بطاقة تقنية لمشروع الترميم الذي أجري على الروضة:

1. الأشغال المنجزة لترميم قاعة الصلاة:

- معالجة التشققات.	- تدعيم الأساسات.
- معالجة أماكن الرطوبة.	- تلبيس الواجهات.
- ترميم السقف.	- طلاء عام للمبنى.

2. الأشغال المنجزة لإعادة بناء قاعة الاجتماعات:

- هدم الأماكن المعادة بقوالب إسمنتية وعوارض حديدية
- إعادة بناء القاعة على حالتها الأصلية.

تاريخ أشغال الترميم: مارس 2002م، مدة الإنجاز: 90 يوما.

الدراسة والمتابعة: ديوان حماية وترقية سهل وادي مزاب.